أحمد بن إدريس وامتداد الشاذلية بالمشرق

د. عبد السلام الغرميني
كلية الآداب ظهر المهراز ـــ فاس

اتفق كل من ترجموا للرجل على أن اسمه أحمد بن إدريس، وأن نسبه ينتهي إلى المولى إدريس بن إدريس، وهو يلقب لذلك بالإدريسي، وأحيانا بالحسني، أو بالشريف، كما هو الحال بالنسبة لمعظم الشرفاء في المغرب.

واتفقت المصادر على أنه ولد سنة 1163 ه/ 1750م، وعلى أنه ولد في بلدة ميسور، كما تشير مصادر أخرى إلى مدينة العرائش، وإلى قرية يقال لها فارة، وهي في الغالب من المواقع التي انتقلت إليها أسرته لفترة محدودة.

رحل أحمد بن إدريس إلى فاس في العشرين من عمره واتصل بكبار العلماء، وانتسب إلى جامع القرويين في سنة 1181. وقد انتظم فيه ومكث فيه حوالي ثلاثين عاما كان يرحل في خلالها إلى بعض ملحقات الجامع للأخذ عن بعض كبار العلماء.

ويعدد محمد بن علي اليمني أساتذة أحمد بن إدريس فيذكر منهم:

ـــ الفقيه المحدث الشيخ محمد التاودي بن سودة (ت. 1209)

ـــ الشيخ عبد القادر بن أحمد بن العربي بن شقرون (ت.1216)

ـــ الشيخ أبو محمد عبد الكريم اليازغي الفاسي (ت. 1199)

ـــ العلامة الطيب ابن كيران (ت. 1227)

ـــ الشيخ المجيدري الشنقيطي.

ومن الواضح أن احمد بن إدريس كان قد بلغ درجة مـــن العلـــم أهلتـــه لإلقـــاء الدروس، وتذكر المصادر أنه كان يدرس في بلدة تازة العلوم الشرعية.

وعمدة الشيخ أحمد بن إدريس في علوم التصوف هو الشيخ عبد الوهاب التـــازي (ت.1206)، فقد أخذ عنه الطريق ولازمه وانقطع بكليته إليه.

ويقول أحمد ابن إدريس:« لما اجتمعت به قبلني وأقبل علي وصار سلوكي علـــى يده، فمنه مددي. فلازمت بابه وخدمته أربع سنوات، وليس قصدي بذلك إلا رضـــاء رب السموات والأرض ».

فللشيخ التازي أثر واضح في سلوك أحمد ابن إدريس، فقد سار على منواله وأخـــذ عنه ثقافته الصوفية وعلا شأنه على يده وهو عمدته في كافة مروياته.

ويؤول الحديث بنا إلى الشيخ عبد الوهاب التازي ونســـبته الصوفيـــة وعلاقتـــه بالطريقة الشاذلية. لقد أخذ التازي الطريقة الشاذلية عن عدة شيوخ وبأسانيد مختلفة ونذكر من ذلك:

1 ـــ أخذ التازي عن شيخه محمد بن زيان القندوسي عن شيخه مبارك بن عـــزي الفيلالي عن الشيخ محمد بن ناصر الدرعي عن أبي القاسم التازي بسنده إلى الشيخ أحمـــد زروق بسنده إلى أبي الحسن الشاذلي.

2 ـــ أخذ التازي عن أبي العباس أحمد الصقلي عن الشيخ مصطفى البكري بســـنده إلى أبي الحسن الشاذلي. وللشيخ البكري إضافة إلى ذلك انتساب خلوتي.

3 ـــ أخذ الشيخ التازي بالخصوص عن شيخه الشهير عبد العزيز الدباغ "الـــذي كان غاية منتهاه وأقصى مرماه". وللشيخ عبد العزيز الدباغ أساتذة علماء منهم عمر بـــن محمد الهواري الذي أخذ عن أستاذه الفشتالي عن الشيخ محمد بن ناصر الدرعي الذي يتصل بالزروقية ثم من خلالها بالشاذلية كما سبق.

4 ـــ عاصر الشيخ عبد الوهاب التازي شيخا صوفيا ألمعيا حمل لواء الطريقة الشاذلية في زمانه وهو الشيخ أبو عبد الله محمد العربي الدرقاوي (ت. 1239)، وكان عجيب الحال معدودا من رجال الكمال، و لم تذكر المصادر اتصال السند بين الرجلين ولكن قيامهما بأمور الطريقة في نفس الزمان ونفس المكان يوحي بإمكان حصول الإفادة والاستفادة بينهما. وقد أخذ الشيخ العربي الدرقاوي عن سيدي علي الجمل العمراني، عن الشيخ العربي بن أحمد بن عبد الله الفاسي، عن أبيه أحمد عن الشيخ قاسم الخصاصي، عن الشيخين: الشيخ محمد بن عبد الله الفاسي، والشيخ عبد الرحمن بن محمد الفاسين، الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي، عن عبد الرحمن المجذوب، عن الشيخ علي الصنهاجي، عن إبراهيم أفحام، عن زروق. ومن المناسب الإشارة إلى أن أحد أعيان تلاميذ أحمد بن إدريس وهو محمد حسن ظافر المدني كان قد أخذ الطريقة الشاذلي بالمغرب عن الشيخ العربي الدرقاوي، ثم رجع إلى موطنه بالمدينة المنورة وبها جدد أخذه لتعاليم الشاذلية على يد الشيخ أحمد بن إدريس.

لقد اتصل الشيخ عبد الوهاب التازي بالعارف بالله تعالى الولي الشهير سيدي عبد العزيز الدباغ وانتفع به، وقد دونت أخبار وأحوال ومعارف الشيخ عبد العزيز الدباغ في الكتاب الذي وضعه للترجمة له تلميذه العلامة أحمد بن مبارك السجلماسي بعنوان "الإبريز"

ثم استفاد الشيخ أحمد بن إدريس من كل ذلك، ووقف على حقائق الصوفية ومصطلحاتهم ورموزهم وأسرارهم وتأثر بمقولات الشيخ الدباغ وعامل تلامذته بمقتضاها.

ويتأكد اتصال أحمد بن إدريس بتعاليم الشاذلية بعد وفاة شيخه عبد الوهاب التازي، فإنه بالرغم من كونه كان قد بلغ خلال صحبته له درجة عالية في الرقي الروحي، ارتأى بعد وفاته أن يستند في تجربته الصوفية إلى شيخ آخر، فوجد ضالته في شيخ شاذلي آخر من أولئك الذين كانوا ينشطون في ربوع المغرب وفي فاس خاصة، وكان هو أبو

القاسم الوزير، يقول أحمد بن إدريس: ولما انتقل عبد الوهاب التازي رضي الله عنه أردت أن أعرف أكمل من بفاس من الأولياء الأقطاب فرأيت أكبر هذا الشأن سيدي أبي القاسم الوزير، وكان من الأفراد، عارفا جليل القدر كبيرا، فأحببت صحبته للتكميل على يده.

قال عبد السلام بن الطيب القادري في كتاب "المقصد الأحمد":

« اعلم أن الطرق قسمان:

ـــ ولادة: والمراد بها الولادة الروحانية، وهي أن يفتح للإنسان على يد شيخ ويستمد أولا من نوره.

ـــ وتربية: وهو زيادة التكميل والتهذيب شيئا فشيئا إلى أن يتم نتاجه ويكمل علاجه.

ثم هما تارة يجتمعان للأخذ في شيخ واحد فيفتح له على يديه ويتربى به. يقع ذلك كثيرا. وتارة يفترقان وذلك بحسب المأخوذ عنه فيفتح له على يد شيخ ويربيه غيره، واحدا أو أكثر، متحدة طريقهم أو مختلفة، كما اتفق لكثير من المشايخ رضي الله عنهم. ولكن إنما ينسب الأخذ لمن فتح له على يده كما قالوه.

وأن الأخذ قسمان:

أخذ تحكيم وسلب إرادة ويكون عن ولادة ولأجل تربية.

وأخذ تبرك واستفادة، وهو لا يكون ناشئا عن ولادة ولا لأجل تربية، وهو مطلق الانتفاع ».

وإذا كان الطريق قسمان فيمكن أن نتفهم تداخل الأسانيد أحيانا وتجمعها أو افتراقها أحيانا في بعض الأشخاص. ومن المعلوم أن الطرق الصوفية المتواجدة في المغرب ترجع في معظمها إلى أصلين:

1 ـــ الأصل القادري: وقد تفرع هو أيضا عبر التاريخ إلى بعض شعب .

2 ــ الأصل الشاذلي: وقد تفرع هو أيضا عبر التاريخ إلى عدة شعب.

وهكذا فلا يمتنع أن يتصدر شيخ صوفي للإرشاد سالكا في ذلك الأمر آداب وتعاليم أحد الأصلين المذكورين، وفي نفس الوقت يكون له سند آخر إضافي مستمد من الأصل الآخر. وبالتالي فإن أكثر الطرق المغربية متداخلة ومندمجة بعضها مع البعض. وهذا وجه من وجوه اتحاد التربية في جوهرها ونسبتها وإن تعددت مظاهرها وبعض خصوصياتها.

ويظهر تأثير أحمد بن إدريس بالشاذلية في أوراده وأذكاره، أما فاتحة الأوراد التي تفتتح بها الأوراد الإدريسية فقد وردت بنصها في "حزب البر" للشاذلي، وأدرجها أحمد بن إدريس في أوراده، كما أخذ من الدباغ الذكر المعروف ونصها:« اللهم بجاه سيدنا محمد ابن عبد الله أجمع بيني وبين سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ في الدنيا قبل الآخرة »، وضمنها في الصلاة العظيمة مع زيادة فيها.

ويعد الحزب السيفي الذي أخذه ضمن علوم أخرى من شيخه المجيدري مما تأثر به كثيرا وضمنه في أحزابه وصلواته، كما تأثر بالحزب المغني لاويس القرني، وجعل قراءته بعد الحزب السيفي.

ويبدو تأثيره بالحزب الصغير للدسوقي واضحا في كتاب "**الحصون المنيعة**" إذ ينقل فيه عبارة الدسوقي وهي:« باسم الإله الخالق الأكبر، وهو حرز مانع من جميع ما نخاف منه ونحذر » إلى قوله:« احمي حميثا واطمس طميسا » إلى قوله:« لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم »، ولكنه لا يتقيد مثل الدسوقي بترديده ثلاث مرات.

ولأوراد الخلوتية مكان في أحزاب أحمد بن إدريس الذي يبدو تأثره بها في عنايته بالنفس اللوامة، وهي وإن ورد ذكرها في القرآن، ويعد ترويضها بالمجاهدة شرطا عند الصوفية إلا أن الأسماء السبعة وهي (لا إله إلا الله ــ الله ــ هو ــ حق ــ حي ــ قيوم ــ قهار) مما اشتهر بها الخلوتية.

والمحامد الثمانية التي ترد في فاتحة أحزاب أحمد بن إدريس أخذ بعض عباراتها من الحزب السيفي، وتدل على ذلك عبارة « اللهم لك حمدا كثيرا مثل ما حمدت به نفسك، وأضعاف ما حمدك به الحامدون» الواردة في حزب السيفي، وتقابلها عبارة المحامد الثمانية ونصها « اللهم لك الحمد حمدا كثيرا دائما مثل ما حمدت به نفسك، وأضعاف ما تستوجبه من جميع خلقك ». كما ورد في الحزب السيفي الدعاء بطلب النجاة من المرض والفقر والوباء والبلاء. وفي "**الحصون المنيعة**" نرى الاستعاذة من كل شر، ومن شر الجنون والبرص والفالج، والسلس .. إلخ.

وللصلاة المشيشية لعبد السلام بن مشيش، وهو أستاذ الشاذلي أثر واضح في تفكير أحمد بن إدريس. فبالإضافة إلى ما ترد بها من إشارة للنور المحمدي فقد استعان ببعض عباراتها مثل « لولا الواسطة لذهب ـــ كما قيل ـــ الموسوط »، والتي يوردها أحمد بن إدريس في أحزابه، كما تأثر أحمد بن إدريس بحزب الفلاح للجزولي بما يحفل به من دعاء وتسبيح واستغفار.

ويبدو أثر كبار الصوفية واضحا في تكوينه الصوفي، وفي ثقافته الدينية. فإذا أخذنا ما كتبه عن الذكر كمثال، فهو يعول عليه كثيرا، ويعتبره شأن كل الصوفية مفتاح الفلاح للمريد، ثم يبين أهميته استنادا على آراء العلماء، وينقل في رسالته من الذكر عن الشبلي وإبراهيم بن أدهم والقشيري وسهل التستري وابن عطاء السكندري ومالك بن دينار والفضيل بن عياض وغيرهم.

الرحلة نحو المشرق:

لقد ابتدأ أحمد بن إدريس رحلته نحو الشرق أواسط سنة 1212، ومر في طريقه بأقطار الجزائر وتونس وليبيا ومصر، ثم حط الرحال في مكة ليقيم بها أربعة عشر عاما ثم

غادرها إلى صعيد مصر لمدة خمس سنوات، ثم عاد إلى مكة ليقيم بها اثنتي عشرة سنة أخرى تنتهي في حدود سنة 1828/1243 .

ويبدو أن أحمد بن إدريس كون عددا من الأتباع المتصوفة خلال هذه المدة، ولكنه كان ينشر تعاليمه بحذر ويوجه مريديه للانصراف للذكر والعبادة وعدم المجادلة والمناظرة مع الآخرين.

لقد عاصر بزوغ نجمه ظهور دعوة أخرى في نفس البلاد تنحو منحى مناقضا لمسلمات ومعتقدات صوفية، هي دعوة محمد بن عبد الوهاب. وقد استطاع أحمد بن إدريس أن يوجد قاعدة عريضة لدعوته رغم أنها كانت تتعارض مع آراء السلفيين في جانبها الصوفي، ويرجع ذلك إلى كونه حقق نجاحا واشتهارا بمكة قبل تمكن الدعوة الوهابية بها، ولكونه يشارك هاته أيضا في بعض الأصول.

فدعوة أحمد بن إدريس الصوفية تأقلمت مع الظروف الفكرية للجزيرة العربية آنذاك والتقت مع طروحات السلفيين أمثال ابن تيمية وابن القيم في بعض مسائل التشريع، وفي أصول الأحكام، وضرورة الرجوع إلى الكتاب والسنة. وإذا عرفنا أن أحمد بن إدريس حرص على ربط تعاليمه بالكتاب والسنة تبين لنا أن أسباب الالتقاء بين الدعوتين كانت أكثر من أسباب الخلاف.

ثم هاجر أحمد بن إدريس بعد أن اشتد خلافه مع بعض فقهاء الفروع من جهة، ومضايقة الدعوة الوهابية من جهة أخرى. وقد اختار أن يقصد اليمن، وفي ذلك يقول:« إن خروجنا من المغرب لنختم بقية العمر في الحرمين فأقمنا بها ما شاء الله أن نقيم فضاق الصدر فاخترنا أن نخرج إلى إقليم من أقاليم المسلمين فاخترنا اليمن». وفي اليمن أقام فترات في زبيد وصبيا والمخلاف السليماني وغيرها، وأجاز أهلها، ونشر دعوته بها، وكون الأتباع المحبين والمريدين. ولكن مركز إقامته كان صبيا حيث قضى تسع سنوات

حفلت بنشاط علمي، وحياة روحية، وتجربة صوفية، ودعوة نشطة، حتى صار أحد معالم صبيا بقوة علمه وعزيمة تلاميذه، إلى أن أدركته الوفاة سنة 1838/1253. وفيها أقيم له ضريح مبارك ميمون مقصود للزيارة.

أتباع أحمد بن إدريس:

للشيخ أحمد بن إدريس أتباع كثيرون نقتصر هنا على إيراد بعض الأسماء المهمة ومنهم للتمثيل فقط.

1 ـ في بلاد الحجاز:

محمد عابد السندي، ومحمود بن شويش وبالخصوص: الشيخ محمد حسن ظافر المدني (1194 - 1263) (1780 - 1847)، فهو معدود من أعيان المدينة المنورة ووجهائها، له كتاب: "الأنوار القدسية في تنزيه طريقة القوم العلية"

2 ـ في اليمن:

حسن بن عاكش:

ينتسب إلى أسرة عريقة في العلم، وإلى مدينة اشتهرت بنشاطها العلمي والديني. ووالده كان عالما محققا وقاضيا، وصاحب مؤلفات متنوعة. وقد عرف بعنايته بعلوم النحو والصرف والحديث، وببراعته في علم الفقه، وأخذ عنه علماء وقته في زبيد ومكة والمدينة، وصار صاحب مدرسة كان تلاميذها من المشاهير، كما كان مرجعا في التدريس والفتيا، ووصفه ابن زبارة بأنه « صار وعاء من أوعية العلم، وإماما في فنونه ».ونعته تلميذه البهكلي في كتاب "**نفح العود**" بشيخ الإسلام وإمام الأئمة الأعلام، وشيخ السنة، وإمام الحديث. وقال عنه ابنه صاحب هذه الترجمة:« شيخ وقته ورعا وعلما، وإمام التحقيق حقيقة واسما ».

ولد حسن بن عاكش في أواخر سنة **6/1221. 1807** ببلدة ضمد، وقرأ القرآن ومبادئ الفقه على والده، ثم درس العربية والمنطق وعلمي الأصول والكلام على أكثر علماء

عصره في المخلاف السليماني، وهاجر إلى مدينة زبيد، وفيها أخذ عن القاضي عبد الرحمن الأهدل صحيح البخاري وصحيح مسلم والأمهات الستة، وحصل على إجازات في أشهر كتب التفسير، وفي علم القراءات، وهاجر إلى مكة 5/1241. 1862، وأخذ عن مشاهير علمائها بعض علوم اللغة، وأجيز فيها، ثم عاد إلى صنعاء، ودرس فيها كثيرا من المطولات والشروحات وعلوم المنطق والمصطلح وكتب الأحاديث المشهورة ومستدرك الحاكم، ودرس على الإمام الشوكاني **نيل الأوطار، وإرشاد الفحول، وفتح القدير**، وأجيز فيها وفي مؤلفات أخرى.

يتبين مما سبق أنه أحاط بأكثر علوم عصره، وصار بعد ذلك عالما محققا، وماهرا في المنثور والمنظوم. وتعد مؤلفاته في التراجم عمدة لمؤرخي عصره حتى أن ابن زبارة عول عليها كثيرا عندما ترجم للأعلام في مؤلفه **نيل الوطر**، ونقل كثيرا من النصوص عنهم من **عقود الدرر، وحدائق الزهر، والديباج الخسرواني**.

اتصاله بأستاذه:

يرجع اتصاله بأستاذه ــ فيما نظن ــ إلى سنة 4/1240. 1825، وهو العام الذي ذكر ابن زبارة أنه ذهب فيه إلى مكة والمدينة. وإذا علمنا أن أحمد بن إدريس كان يواصل دعوته آنذاك في مكة والمدينة والطائف، وأنه أخذ عنه، وصار من أشهر تلاميذه فمن المحتمل أن يكون قد اتصل به في أثناء ذلك فيما بين سنوات 1240 - 1824/1243 - 1827. ولا نرى تعارضا بين هذا وبين ما ذكره في كتاب "المناظرة" عن قدوم أستاذه عليهم في صبيا 8/1244. 1829، لأنه كان قد عاد من مكة في وقت سابق لهذا التاريخ حسب رواية ابن زبارة.

وإلى حسن بن عاكش يرجع الفضل في شيوع بعض تعاليم أستاذه، واشتهار أمره، وقد شرح بعض عباراته، وبين منهجه ــ وآراءه، ووصف مجالسه وأصول طريقته.

ويتبين من وصف أستاذه مدى الرابطة الروحية التي كانت تشده إليه، فهو يقـــول عنه:« رباني هذه الأمة المحمدية وقطب دائرة الولاية الأحمدية التي لم يصل مداها أحد مـــن أهل عصره ». ويقـــول:« لم تصـــدر منه إلا علـــوم زاخـــرة، ومعـــارف بـــاهرة ». وأيضا:« ولازمته وأخذت عنه علم الحقيقة، وعثرت من معارفه على زبد الحقيقة ».

ويعدد في "**الدر المصون**" أوصافه ومناقبه وعلمه الربـــاني واســـراره الصمدانيـــة، ومعارفه وفتوحاته، ويحدث عن سلوكـــه الصـــوفي على يديه، ويذكـــر عن أثره الديـــني والعلمي في صبيا، ويشير إلى خلافه مع علماء المغرب ومكة وفقـــهاء عســـير، ويتصـــدى لهؤلاء، ويتحامل عليهم أحيانا عندما يسمهم بالجهل، ويشير إلى قلة محصولهم العلمي.

ومما ينبغي الوقوف عنده هو ما ذكره عبد الله أبو دهاش عن رجوع ابن عـــاكش عن معتقد أستاذه الصوفي في أواخر أيامه، واعتدال موقفه من الشيخ محمد بن عبد الوهـاب، وميله إلى الوضوح والتأييد. والحق أن ابن عاكش لم يكن منـــاهضا لهذه الدعوة، كما أنـــه لم يكن من أنصارها، وإنما كان عالما جمع بين الشريعة والحقيقة، ورأى ما كان يراه الصوفية من أهمية التصوف كوسيلة للمعرفة. وأما وصفه لعلماء عسير بالجمود فلوقوفهم — في نظره — عند ظاهر الشرع دون فهم لحقيقة الكتاب والسنة، كما أنه التقى مع الدعوة الوهابية في الأخذ بالكتاب والسنـــة، ومحاربـــة البدع، وإن اختلف في أسلوب الدعـــوة، وعـــارض علماءها في رفضهم لمراسم الصوفية.

مؤلفاته:

لابن عاكش مؤلفات كثيرة منها: عقود الدرر، و حدائق الزهر، و الدر المصـــون، وذيل نفح العود، و روض الأذهان، وشرح نظم المدخل في عالم المعاني والبيان، والذهـــب المسبوك، ونزهة الأبصار في السبيل الجرار، وجواهر القلائد في العقائد، ورسالة الســـيوف

القاطعة. ونسب إليه أحد الباحثين كتاب قمع المتجري على أولاد الشيخ بكري. وله مجموعة أشعار بعضها في مدح أستاذه. وتوجد مجموعة منها بالمكتبة العقيلية بجازان برقم 28.

عبد الرحمن الأهدل، من تلاميذ أحمد بن إدريس المتصدرين:

ترجم له محمد بن علي الشوكاني في "**البدر الطالع**" وحسن بن عاكش في "**الديباج الخسرواني**" وابن زبارة في "**نيل الوطر**" وإسماعيل البغدادي في "**هدية العارفين**" والزركلي في "**الأعلام**" وصديق خان في "**أبجد العلوم والتاج المكلل**" ومحمد أهدلي في "**القول الأعدل في تراجم بني الأهدل**". وهو بدوره ترجم لأعلام اليمن السابقين والمعاصرين، وخص بالترجمة أولئك الذين حلوا باليمن في أيامه، وتلقى العلوم عليهم، وضمن ذلك في كتاب "**النفس اليماني**" الذي ألفه إجابة لطلب من أبناء العلامة محمد بن علي الشوكاني.

ويعد هذا الكتاب مصدرا أساسيا في تراجم طبقات علماء القرن الثاني عشر الهجري، والعلماء الذين درسوا على جدّه، والذين درس هو عليهم. ومن هؤلاء أستاذه أحمد بن إدريس الذي خصه بترجمة أعتمد عليها أكثر من كتبوا عن نشاطه في اليمن.

وللأهدل إجازات علمية تدل على تعدد مصادر ثقافته، وعلى أهميته للتصدي للفتيا والتدريس وله إجازة من أستاذه في جميع العلوم، كما أذن له فيه أن يجيز هو وأولاده من شاءوا على شروط الإجازة المعتبرة. وله مؤلفات ورسائل ذكر عبد الله محمد الحبشي في تقديمه لكتاب "**النفس اليماني**" أنها تتصل بما عرف عنه، وتخصص فيه، وهو التدريس، ونشر العلم بين طلبته. ويضيف إلى ذلك قوله:« وكانت كتبه غالبا ما تصنف لغرض وقتي يتطلبه الأمر حال التدريس لشرح متن أو نظم مسألة وغيره مما يقتضيه الأمر ». وهذا النص وإن صح مع بقية كتبه فإن الأمر يختلف مع كتاب "**النفس اليماني**" الذي حوى معلومات

كثيرة عن الأسانيد وتراجم الأعلام وآثارهم العلمية. بالإضافة إلى ما ذكره عن أستاذه، ووفوده إلى مدينة زبيد سنة 1244/8. 1829 قادما من مكة، وإملائه من الرقائق والحقائق « ما استنارت به قلوب سقيمة، وتداوت من جراحات غفلاتها قلوب أليمة، وازدحم الخاص والعام على الاستفادة من تلك العلوم، والاقتباس من نور مشكاة تلك الفهوم ». وأضاف إلى ذلك إقبال الناس عليه، وانتفاعهم بعلمه « لأن هديه في عباداته وعاداته الهدي النبوي لا سيما الصلاة » التي أشار إلى أنه كان يحسنها على الوجه التام الذي وردت به الأحاديث الصحاح «لا يلتزم في إقامتها ولا إقامة غيرها مذهبا من المذاهب، بل مذهبه ما صح به الحديث، كما هي طريقة خلائق من العلماء الأعلام ».

وتناول في هذا الكتاب جانبا من نشاطه العلمي وأماله ومجاليه وإجازاته لأهل زبيد واليمن، وما قيل من قصائد في مدحه.

أما عن دور الأهدل في نشر تعاليم أستاذه فالمصادر تسكت عن ذلك، وكل ما نعرفه أنه اتصل به في مكة، وأرشد بعض التلاميذ إليه، ولمس ما كان يواجهه من معارضة العلماء. ويبدو أنه عرض عليه فكرة الخروج لليمن، والترول عنده في زبيد، لأن هذا حدث فيما بعد.

أما في اليمن فقد كان طرفا في ذلك الجدل الذي أثاره وفود أستاذه إليهم، وفي هذا يذكر إبراهيم الرشيد أنه كان نائبا عن العلماء

3 ـ في ليبيا:

محمد بن علي السنوسي

وأخذ عنهم، وظل باحثا عن مرشد روحي يروي ظمأه حتى التقى بأحمد بن إدريس الذي صار أستاذه وشيخ تربيته ومرشده، وعنه:« أخذ جميع علوم القرآن من قراءات وتفاسير وأحكام وآداب على أسلم طريق، وأوفق نظام كالكتب العشرة في

الحديث والمسانيد والجاميع والمعاجم، وأخذ عنه الطرق: القادرية والشـــاذلية والخضريـــة، وأجيز فيها، وفي سائر الطرق الأربعين ».

لازم السنوسي شيخه في مكة، وارتقى إلى أعلى الدرجات في الســـلم الصـــوفي، وصار من كبار التلاميذ. وثمة إشارات تعد دليلا على إيثاره أو أهليتـــه ومكانتـــه وإليـــك بعضها:

أولا: عندما غادر أحمد بن إدريس مكة إلى اليمن صحبة السنوســـي مـــع بقيـــة الأخوان حتى ميناء القنفذة. ومن هناك رجع إلى مكة بإشارة من أستاذه ليقوم مقامه في كل ماله وعليه، ونشر دعوته، وإعطاء طريقته، وتعليم تلاميذه.

ثانيا: أشار أحمد بن إدريس إلى تلاميذه بامتزاج روح السنوسي في روحه، وهـــو مؤثر إلى اكتمال تربيته، كما روي عن أحد تلاميذه قولـــه:« إن السنوسي منا ونحن منـــه، هو خليفتنا، والقائم مقامنا ». كما روي عن مخاطبته الأخوان بقوله:« أما ولدنا محمد بـــن السنوسي فنحن أمرناه أم يدل الخلق على الله، ويجذب الطالبين إلى الله، إياكـــم ثم إياكـــم من كل ما يقطعكم عن صحبته، فإنه النائب عنا ».

ثالثا: أورد أحمد الشريف السنوسي أقوالا نستنبط منها تهيب السنوسي من هـــذه المهمة عندما اختاره أستاذه له لمصلحة رآها، وتأكيده لمترلتـــه، وعلـــو مقامـــه عنـــد الله، والتحذير من إيذائه، وعاقبة ذلك، والإيحاء بأنه ما أقامه إلا امتثالا لأمر الله ورسوله.

رابعا: أبان أحمد بن إدريس مكانة السنوسي في رسالته إلى تلميذه الميرغني، عندمـــا نصحه باتباع السنوسي، والانصياع لنصـــحه، وبقوله لـــه:« فلا يكن أمر أهم عليـــك، ولا شيئا أحب إليك من صحبة أخيك محمد بن السنوسي، فعليك به، فاتخذه صاحبا وصديقـــا، فإنه قد انسلخ من نفسه انسلاخا كليا، كما تنسلخ الحية من نفسها، فهو في أمر عظيم مـــن

الله ومن نفسه ». ثم يقول:« فإذا صحبته فأنزله مترلتنا لكونه نسخة صحيحة منا ومنحاز بكليته إلينا لا رائحة أجنبية عنده ».

خامسا: ثمة رسالة أخرى من احمد بن إدريس يشير فيها إلى جماعة من المغاربة صحبوه « فعلت همتهم في الله فحازوا قصب السبق في المعرفة بالله فانفتح لهم باب من الله فصاروا من المحدثين في حضرة الحق بلا واسطة».

ويشير البستاني إلى أنه يريد بجماعة المغاربة ابن السنوسي وأتباعه، وليس ما يمنع من هذا التفسير، لأن السنوسي يشير في بعض مكاتباته إلى أخوان من المغاربة، ودورهم في نشر الدعوة.

4 ـ في السودان:

سوف نتحدث فيما يلي عن تلاميذ أحمد بن إدريس الذين أخذوا عنه، ولازموه زمنا، ثم ساروا سيره، وقاموا بجهود كبيرة لنشر تعاليمه في كثير من أرجاء السودان. وأبرز هؤلاء هم: محمد عثمان الميرغني، وإبراهيم الرشيد، ومحمد المجذوب، وعبد الله أبو المعالي، ومكي بن عبد العزيز.

لقد ساهم هؤلاء في نشر تعاليم المدرسة الإدريسية بوسائل متعددة، سواء بتأسيس طرق خاصة، وتأليف أوراد وأحزاب أستاذهم فيها، كما فعل الميرغني، أو بالسير على نهج الأستاذ، ودون تأليف أوراد أو أحزاب خاصة كإبراهيم الرشيد، أو بالأخذ عنه، والاستفادة من علمه، وتلقين المريدين بعض أوراده كما فعل محمد المجذوب. ومن التلاميذ من التزم بنهج أستاذه، ودون بعض آثاره، وروى عنه بعض أماليه، وابتعد عن جو الخلاف بين كبار التلاميذ كعبد الله بن المعالي، ومنهم من بشر بتعاليمه، وراسله، ولم يؤثر عنه أنه ألف كتابا أو أورادا مستقلة كالشيخ مكي بن عبد العزيز، ومنهم من تتلمذ عليه، وعاد

للبلاد، واشتغل بالتصوف، واشتهر بالكرامات، ووثق صلته بتلاميذ المدرسة وأتباعها كما فعل الشيخ حسن ود بلول في منطقة قرى.

وهناك تلاميذ آخرون يكتنف دورهم نوع من الغموض لسكوت المصادر عن ذلك. ومن هؤلاء علي الشايقي الذي لم نعرف عنه سوى أنه كان يحمل رسائل أستاذه إلى تلاميذه في مصر والسودان، وإبراهيم شاع الدين المعروف بعلي شمو الذي جاء للسودان، واشتهر بخلافه مع إبراهيم الرشيد، وأظهر ميله للسنوسي. أما السيد محمد الشفيع فقد استقر في ليبيا، ولا نعرف له دورا في السودان، ومثله إبراهيم ابن عكود وإبراهيم دليل المحسي.

ويلاحظ أن كبار التلاميذ كانوا من أسر مشهورة بالعلم والصلاح، فالميرغني من أسرة صوفية ودينية في مكة، والرشيد من الدويحية المعروفين بالعلم في بلاد الشايقية، والمجذوب من اسرة مشهورة في الدامر، وأبو المعالي من قبيلة مؤثرة في حياة السودان، ومكي بن عبد العزيز من أسرة مغربية من الأشراف، وعلي شمو من أسرة احترفت العلم والتجارة. وفيما يلي نذكر شيئا عن هؤلاء وآثارهم العلمية.

1 ـ محمد عثمان الميرغني:

يعد الميرغني من أبرز تلاميذ أحمد بن إدريس. وقد توفرت عدة عوامل جعلته يتسنم تلك المكانة العالية، فهو سليل أسرة دينية عرفت بانتمائها إلى آل البيت، واشتهر أفرادها بالثراء والجاه والعلم والتصوف. نشأ الميرغني في جو ديني، ووجد بيئة الحجاز تستمد شعاعها من التراث الديني لمكة بقداستها، وشاهد مواسم الحج وهي تتحول كل عام إلى مؤتمر إسلامي يلتقي فيه القادمون من البلاد الإسلامية. وبدأ تعليمه بقراءة القرآن، ودراسة العلوم الدينية التي استوعبها صغيرا بصورة استرعت الانتباه، كما استفاد من تراث جده عبد الله المحجوب الذي اشتهر بمؤلفاته، ودرس على عمه محمد يس.

ويذكر الميرغني عن أسانيده في التصوف ويشير إلى أنه أخذ الطريقة النقشبندية عن الشيخ أحمد بناه المكي، الذي أودعه بعض أسراره، وحصلت له على يديه رؤية النبي منامك ثم اجتمع بالشيخ سعيد العامودي، وتنورت بصيرته على يديه، وكثر اجتماعه بالنبي، كما أخذ عنه الطريقتين القادرية والشاذلية، وأخذ "**دلائل الخيرات**" للجزولي، و "**الدر الأعلى**" لابن عربي، بالإضافة إلى "**حزب البحر للشاذلي**".

ويبدو أن الجو الروحي الذي كان يحيط بعائلته قد ترك أثرا في نفسه، وجعله لا يكتفي بالمدد الذي كان يستمد منه تعاليم جده التي كانت تصل بالسالك إلى تجلي البصيرة بكثرة رؤية النبي، فضل باحثا عن مدد آخر لينال مقاما أعلى حتى التقى بولي آخر من الهند يدعى أحمد بن عبد الكريم الأزبكي فأرشده هذا إلى شيخ إرشاده أحمد بن إدريس الذي يقول الميرغني إنه صحبه حتى:« فتح الله لي على يده ». ويضيف إلى ذلك أنه اجتمع بعبد الرحمن الأهدل، وأخذ عنه بعض الأوراد فأرشده بدوره إلى أستاذه أحمد بن إدريس، فأخذ عنه الطريقة الشاذلية مرة أخرى، كما أخذ النقشبندية التي يظل يبشر بتعاليمها، ويقدم سندها على بقية الأسانيد « لأن نصف أذكارها بالقلب، والنصف باللسان »

المراجع:

ـ المدرسة الشاذلية وإمامها، للدكتور عبد الحليم محمود. ط. مصر، دون تاريخ

ـ مدرسة أحمد بن إدريس المغربي وأثرها في السودان، للدكتور يحيى محمد إبراهيم، ط. دار الجبل، بيروت، دون تاريخ.

ـ المقصد الأحمد في التعريف بمولانا ابن عبد الله أحمد، للشيخ عبد السلام بن الطيب القادري، طبعة حجرية.